الهيئة العامة للأوقاف وشؤون الزكاة

الندوة العلمية : التدين بين الإفراط والتفريط

تحت شعار: (من أجل استشراف سلوك ديني وسطي معتدل)

بحث بعنوان
مظاهر الاعتدال في التدين من خلال الكتاب والسنة

إعداد

الأستاذ الدكتور / عمر مولود عبد الحميد

رئيس اللجنة الاستشارية العلمية بالهيئة العامة للأوقاف وشئون الزكاة

أستاذ الدراسات العليا بعدد من الجامعات الليبية

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد المؤمنين ونشكره شكر من يطلب الخير العميم ونصلي ونسلم على نبيه الكريم وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الإسلام جاء لكافة البشر يخاطبهم بالحسنى ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم دنيا وأخرى، ويهديهم للتي هي أقوم عن طريق وحي منزل متمثل في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم – صلى الله عليه وسلم –، حيث جاءت فيهما الأوامر والنواهي وسائر التكاليف لعباد الله أجمعين، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[2]، فالبشارة والنذارة والرحمة هي موجهة إلى الناس تارة، وإلى المؤمنين تارة أخرى، ومعنى هذا أن عباد الله هم جميعاً مخاطبون من طرف الله بأن ينتظروا الرحمة من خالقهم وأن ينالوا البشارة إن عملوا لها، والنذارة إن تنكروا لما كلفوا به من رب العالمين، ولذلك نجد أن الدين الإسلامي فيه ما يكفل السعادة الدنيوية والأخروية لعباد الله أجمعين إن هم امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه، وعملوا للدنيا والآخرة، يأخذون من دنياهم لآخرتهم ويأخذون من آخرتهم لدنياهم، فقد راعى الإسلام مطالب الجسد كما راعى مطالب الروح، فإن مبدأ التوازن والاعتدال بين الجسد والروح يعد من أهم المبادئ التي انبنى عليها الدين الإسلامي الحنيف وراعاها في كافة ما يتعلق بحياة الإنسان الدنيوية والأخروية مخالفاً في ذلك ما كانت عليه الديانة اليهودية والنصرانية.

فاليهودية تطغى عليها النزعة المادية الخالصة، فلا نكاد نجد للروحانية أثراً يذكر فيها، وحتى ما يوجد من وعد ووعيد لمن كانوا يستحقونهما في هذه الدنيا نجدهما يتعلقان بأمور الدنيا من الخصب والنماء، أو القحط والجوع، أو التعمير في الدنيا وطول العمر وقصره، فقد ورد في بعض نصوص التوراة: اعبدوا ربكم الإله

(1) سورة الأنبياء الآية (107).

(2) سورة سبا الآية (28).

الأزلي وهو يبارك خبزكم وماءكم، ويبعد عندكم العلل والأدواء وسيطيل أعماركم، وفيها أيضاً: إذا أطعتم أمري وحفظتم وصيتي فسأبعث عليكم الأمطار في أوقاتها.

أما الديانة المسيحية فعلى الخلاف من ذلك حيث نجد فيها دعوة قوية إلى نبذ الدنيا وطلب النجاة والسعادة في العالم الآخر، فقد جاء في الإنجيل: (لا يدخل غني ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في سم الخياط)، وقال المسيح لشاب آمن به: (إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملك واعطه للفقراء). ولم يقف أتباع هذه الديانة عند تعاليم الإنجيل ودعوة المسيح –عليه السلام– إلى التقشف والزهد بل بالغوا فيما طلب منهم وتجاوزوا فيه الحدود وظهر عندهم ما يعرف بالرهبانية التي نهوا عنها بقوله جلت حكمته: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾(1)، وقد مارس رهبان هذه الديانة العديد من الممارسات الخاطئة من أمثال الامتناع عن الزواج والطيبات من الأطعمة، والامتناع عن الغسل والطهارة، وتعذيب الجسد، اعتقاداً منهم بأن ذلك يقربهم من الله تعالى(2).

فلما جاءت رسالة الإسلام كانت السمة البارزة لها هي التوازن والاعتدال والتوسط في كافة أوامرها ونواهيها، مستجيبة في ذلك إلى المطالب التي فطر الله الإنسان عليها من كد وتعب لكسب الرزق ومن نوم وراحة، ومن أكل وشرب، ومن زواج وإنجاب، مع توجهها في الآن ذاته إلى عبادات أوجبتها على أتباعها من أجل التقرب إلى الله تعالى وطلب النجاح والنجاة والسعادة في الآخرة.

ومن أجل إبراز هذه السمة الجليلة فإن الباحث سيورد في فقرتين اثنتين أمثلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، يخصص الأولى منهما لبيان مظاهر الاعتدال في التدين من خلال جملة من الآيات القرآنية الكريمة، بينما يعرض في الثانية لعدد من الأحاديث النبوية التي تظهر الوسطية والاعتدال في هذا الدين الحنيف، وذلك على النحو الآتي:

---

(1) سورة الصف الآية (27).

(2) ينظر: العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي، ص175 وما بعدها.

أولاً: مظاهر الاعتدال في الكتاب

1- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾(1).

الوسط هو العدل والاعتدال في كل شيء؛ لأن الزيادة على المطلوب إفراط، والنقص عنه تفريط، وكلا الأمرين مذمومان، فالعدل والاعتدال لا يكونان إلا وسط الأمر بين طرفيه.

وقد دلت هذه الآية على أن أمة الإسلام تتميز بالاعتدال والوسطية القويمة، بخلاف من سبقها من الأمم، فقد خرج اليهود عن جادة الاعتدال ففرطوا في دينهم، وأخذتهم الدنيا بمادياتها المحضة، وقد وصل بهم حبهم للماديات أن حرفوا الكلم عن مواضعه، واعتدوا على أنبيائهم بالتعذيب والقتل، كما أن النصارى كانوا على النقيض من ذلك فحادوا عن الاعتدال إلى الإفراط في طلب الروحانيات، وترك الدنيا وما فيها حتى خرجوا عن دين الله القويم، وألّهوا بعض أنبيائهم.

غير أنه سبحانه وتعالى عصم أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– من ذلك وجعلها أمة عدل واعتدال، بما جمع لها في دينها بين حق الروح وحق الجسد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(2)، فالإنسان خلقه الله تعالى جسماً وروحاً وحيواناً وملكاً(3).

2- قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ*وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(4).

ففي الآية الثانية من هذا النص القرآني تظهر الدلالة على طلب الاعتدال في التدين جلية واضحة، حيث أبرزت هذه الآية طلب خير الدنيا وخير الآخرة في آن معاً، وهو أمر مطلوب من كل مسلم، بينما دلت الآية الأولى على أن هناك من لا

---

(1) سورة البقرة، الآية (143).

(2) سورة القصص الآية (77).

(3) ينظر: تفسير المنار، 4/2.

(4) سورة البقرة: الآيتين (200، 201).

يعتدل، فيقتصر على طلب الدنيا، وينسى أن الخير كل الخير في طلب الآخرة أيضاً، فالاقتصار على طلب الدنيا تفريط واضح لا يستساغ من مسلم فهم دينه فهماً صحيحاً، كما أن الاقتصار على طلب خير الآخرة فقط- وإن لم يذكر في هذا النص القرآني- فهو إفراط يخرج بصاحبه عن الاعتدال الذي أمر المسلمون جميعاً به، وتبياناً لذلك نجد أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: **(ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعاً فإن الدنيا بلاغ الآخرة)**[1].

وقد استنبط بعض العلماء من الآيتين المذكورتين حكماً شرعياً مفاده أن الاعتدال كما يكون في أمور أخرى يكون في الدعاء أيضاً بحيث لا يتجاوز المسلم في دعائه فيطلب ما لا يكون، ولا أن يُهمل الدعاء ألبتة[2]، لذلك فقد روي عن أنس -رضى الله عنه- أنه قال: كان أكثر دعاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار[3]، وهو ما كان عليه عمل الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم[4].

3- قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾[5].

هذه الآية الكريمة كسابقتيها تدعو إلى الاعتدال والتوسط فيما تعرضت له، فقد سبقت الإشارة إلى أن لكل أمر طرفين مذمومين أحدهما إفراط، والآخر تفريط، وإنفاق المال لا يخرج عن هذه القاعدة باعتباره من التكاليف الشرعية المتمثل فيه الوجوب والندب والحرمة والكراهية، فإذا لم يتقيد الإنسان بالآداب الشرعية في الإنفاق فسيخرج به إلى أحد الطرفين المذمومين، فإما أن يُفرِط في الإمساك فيصل إلى درجة البخل المذموم، وإما أن يحصل منه إفراط في السرف فيكون تبذيراً مذموماً منهياً عنه، فحري بالمؤمن أن يلتزم بالأسس الشرعية في إنفاق ماله، فيكون إنفاقه باعتدال

(1) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، 228/2 ووصفه بالضعف، ولكن يمكن الاستئناس به في هذا المقام، لأنه في معناه يلتقي مع العديد من النصوص الصحيحة.

(2) ينظر: تفسير القرطبي، 433/2.

(3) ينظر: سبل السلام للصنعاني، 222/4.

(4) ينظر: تفسير القرطبي، 433/2.

(5) سورة الإسراء، الآية (29).

وتوسط بين ذينك الطرفين فلا بخل ولا تبذير، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[1].

ففي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ نهي عن الامتناع عن إنفاق المال في الحقوق التي أوجبها الله تعالى فيه كالنفقة على الزوجة والوالدين والأولاد، وإخراج الزكاة لمستحقيها، والجهاد بالمال عند تعينه مثلاً، وقد شبه الله تعالى الممتنع عن الإنفاق بمن علقت يده بعنقه فلا يستطيع بسطها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ نهي عن تجاوز الحدود في إنفاق المال وإن كان في وجوهه المشروعة، لأن ذلك يجعل المتجاوز للحدود في الإنفاق ملوماً من طرف نفسه وممن يسأله العطاء فلا يجد ما يعطيه، فيصاب بالحسرة والندامة على تجاوزه لحد الاعتدال والتوسط في الإنفاق.

وما ذكر في هذه الآية يسري على قوله تعالى في صفة عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[2]، إذ إنها بمنتهى الوضوح تدل على أن عباد الرحمن دأبهم التوسط والاعتدال في إنفاق ما يقع بين أيديهم من الأموال.

ثم إن النهي المذكور في الآية –محل البحث– وإن خوطب به النبي –صلى الله عليه وسلم– فالمقصود به أمته، وقد ورد مثل ذلك كثيراً في القرآن الكريم، وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن عدداً من الصحابة –رضوان الله عليهم– كانوا ينفقون جميع أموالهم في سبيل الله على مرأى ومسمع من النبي –صلى الله عليه وسلم– فلم ينكر عليهم ذلك، لما يعرفه –صلى الله عليه وسلم– عنهم من صحة اليقين وشدة العزائم، فالنهي في هذه الآية عن الإفراط في الإنفاق يكون لمن خيف عليه التحسر على ما يخرج من يده، فهذا يؤمر بالاعتدال، أما من كان في درجة الصحابة _رضوان الله عليهم– من الثقة بموعود الله تعالى، وجزيل عطائه فغير مراد من النهي الوارد في هذه الآية[3].

---

(1) سورة البقرة، الآية (143).

(2) سورة الفرقان، الآية (67).

(3) تفسير القرطبي، 250/10.

4- قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(1).

معنى صدر هذه الآية أن على المسلم أن يطلب فيما أعطاه الله من الدنيا الدار الآخرة ليكون دليله إلى الجنة يوم القيامة، وأما عن عجزها، وهو قوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، فإن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن المقصود به هو ألا يترك الإنسان نصيبه من الدنيا، بأن يأخذ فيها بنصيبه من الآخرة فيعمل عملاً صالحاً لينجيه من عذاب الله يوم القيامة، وقد وصف القرطبي هذا التفسير بأنه شدة في الموعظة(2)، بينما ذهب آخرون إلى أن المراد هو ألا يترك المؤمن نصيبه من الدنيا بأن يطلب فيها حظه من الرزق الحلال، ولا بأس من أن يتمتع فيها بأوجه التمتع المباحة، قال ابن عمر -رضي الله عنهما-: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، وقال الحسن وقتادة: لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، وقال الإمام مالك: معنى الآية: هل الأكل والشرب بلا سرف(3)، وهو معنى التوسط والاعتدال في كل الأمور بما في ذلك أمر الدنيا والآخرة.

5- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(4).

عند التأمل في هاتين الآيتين الكريمتين نجد فيهما لطيفة يستدل منها على أن الآيتين تصلحان دليلاً على طلب التوسط والاعتدال في شؤون الحياة كلها، فالإنسان من خلال هاتين الآيتين تتداوله شؤون حياته الدنيوية من بيع وشراء وأعمال أخرى، وشؤون الآخرة من عبادات تربطه بالله سبحانه وتعالى، فهذا شأن المسلم: عمل وبيع قبل الصلاة، ثم سعيٌ إلى ذكر الله والصلاة، ثم عود إلى العمل والكسب بعد انقضاء

---

(1) سورة القصص، الآية (77).

(2) ينظر: تفسير القرطبي، 314/13.

(3) ينظر: تفسير القرطبي، 314/13.

(4) سورة الجمعة، الآيتين (9-10).

الصلاة[1]، وهكذا، فهذا التداول والمواءمة بين الأمور هو المعيار الصحيح لمبدأ التوسط والاعتدال في التدين اللذين تقوم عليهما رسالة الإسلام.

ثانياً: مظاهر الاعتدال في السنة

كل ما سبق يمثل بعضاً من مظاهر الاعتدال في الكتاب العزيز، وحيث إن السنة النبوية هي الأخرى طافحة بما يدل على احتفائها بالتيسير والاعتدال في العبادة، فإننا نورد أمثلة منها تبين بجلاء تام حثّ النبي –صلى الله عليه وسلم– على التوسط والاعتدال في التدين، ونقتصر منها على ذكر الأحاديث الآتية:

1- روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– أنه قال: أُخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه يقول لأقومن الليل ولأصومن النهار ما عشت، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أأنت الذي تقول ذلك؟، فقلت له: قد قلته يا رسول الله! فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم– فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر، قال: قلت فإني أطيق أفضل من ذلك، قال صم يوماً وأفطر يومين قال: قلت فإني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله، قال: صم يوماً وأفطر يوماً وذلك صيام داود –عليه السلام– وهو أعدل الصيام قال: قلت فإني أطيق أفضل من ذلك، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم لا أفضل من ذلك، قال عبدالله بن عمرو – رضى الله عنهما– لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أحب إليّ من أهلي ومالي[2].

وفي رواية أخرى، قال عبدالله بن عمرو بن العاص: كنت أصوم الدهر وأقرأ القرآن كل ليلة، قال فإما ذُكرتُ للنبي –صلى الله عليه وسلم– وإما أرسل إليّ فأتيته فقال لي: ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟! فقلت: بلى يا نبي الله ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: فإنّ بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فإن لزوجك عليك حقاً ولزورك عليك حقاً

---

(1) ينظر: العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، ص: 180.

(2)صحيح مسلم بشرح النووي 39/8، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.

ولجسدك عليك حقاً، قال: فصم صوم داود نبي الله –عليه السلام– فإنه كان أعبد الناس، قال: قلت يا نبي الله وما صوم داود؟ قال: كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، قال: واقرأ القرآن في كل شهر، قال: قلت يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في كل عشرين، قال: قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في كل عشر، قال: قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، قال: فشدّدت فُشدد عليّ، قال: وقال لي النبي –صلى الله عليه وسلم–: إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر. قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي –صلى الله عليه وسلم– فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله –صلى الله عليه وسلم[1]–.

ففي هذا الحديث بروايتيه من التوجيه إلى الاعتدال ما يجعل الإنسان في مأمن من الندم أو عدم القدرة على القيام بما كلف به نفسه، ونلمس هذا بوضوح في حث النبي –صلى الله عليه وسلم– لهذا الصحابي في التوسط في عبادتي الصيام وقراءة القرآن كي لا يكلَّ نشاطه ويستطيع المداومة على ما ألزم نفسه به من أنواع العبادة، خاصة إذا ما كان لهذا الشخص التزامات معيشية من عمل وظيفي أو مهنة خاصة بحيث لا تتأثر إحداهما بالأخرى فيعتدل في عبادته كما يعتدل فيما يقوم به من أعمال المعيشة، وخير دليل على ضرورة انتهاج مسلك التوسط والاعتدال والابتعاد عن المغالاة في العبادة ما آل إليه أمر هذا الصحابي عبدالله بن عمرو – رضى الله عنهما– من أنه حين كبر قال: وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله – صلى الله عليه وسلم–، فهو من جهة لم يستطع ترك ما التزم به أمام النبي –صلى الله عليه وسلم– من عبادة، ومن جهة أخرى شق عليه القيام بما التزم به.

2– روي عن السيدة عائشة –رضى الله عنها– أنها قالت: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لن يمل حتى تملوا، وكان يقول: أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه[2].

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي 42/8، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي 39/8، باب صيام النبي –صلى الله عليه وسلم– في غير رمضان.

وروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص –رضى الله عنهما– أنه قال: قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: يا عبدالله لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل[1].

يستدل من هذه الأحاديث أن من الاعتدال التزام المرء بما يقتدر عليه من العبادة فإن التعمق فيها يؤدي إلى الملل منها فيتركها أو بعضها، ذلك أن أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه، والمداومة لا تكون إلا مع الاعتدال، وهذا ما يرشد إليه الحديث الثالث، فالمغالاة من شأنها إرهاق صاحبها، ومن ثم النفور منها وتركها، وهو مشاهد على أرض الواقع قديماً وحديثاً من بعض الأفراد الأمر الذي جعل النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول لعبدالله بن عمرو: يا عبدالله لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل.

3- عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: إن الدين يسر ولن يشادّ الدين إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغداة والروحة وشيء من الدلجة[2].

في هذا الحديث دعوة إلى عدم التعمق في الأعمال الدينية، إذ المبالغة والتنطع في الدين مدعاة إلى الانقطاع عن العبادة، ولا يؤخذ من هذا الحديث تزهيد المسلم في طلب الأكمل من العبادات، بل المراد هو منعه من الإفراط المؤدي إلى الملل والترك، وفراراً من حصول مثل هذه المحاذير نجد النبي –صلى الله عليه وسلم– يرشد إلى أفضل الأوقات المنشطة التي تعين المسلم على القيام بالعبادة فيها على أكمل وجه وأدومه، وهي ما كان بين طلوع الفجر وشروق الشمس المعبر عنه بالغدوة، وما كان بعد الزوال المعبر عنه بالروحة، وما كان بطرف من الليل المعبر عنه بشيء من الدلجة، والذي فيه إشارة إلى أنه لا يطلب من المسلم أن يتعبد الليل كله.

وأخيراً فإن قوله –صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث (فسددوا) أي توسطوا في كل عمل من غير إفراط أو تفريط، و(قاربوا) أي: إن لم تستطيعوا بلوغ

---

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري 25/3 باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه.

(2) صحيح البخاري مع فتح الباري 70/1 باب الدين يسر.

الكمال في العبادة فاعملوا منها بما يقرب منه، و(أبشروا) أي: أبشروا بثواب العمل الدائم وإن قل، والمتتبع لهذا الحديث بفقاره كلها يجده يدعو إلى العمل الموسوم بالاعتدال والمداومة وطلب الكمال أو القرب منه.

4- روي عن أنس بن مالك -رضى الله عنه- أنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- يسألون عن عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي -صلى الله عليه وسلم- قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟!، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني(1).

تتضح الدعوة إلى الاعتدال والتوسط من خلال هذا الحديث بكل جلاء، فإن ثلاثة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- آثروا مزيداً من التعبد وترك شهواتهم الدنيوية وأرادوا أن يعرفوا عبادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي هو قدوتهم وقدوة كل المؤمنين لينالوا باقتدائهم به الدرجة العظمى عند الله سبحانه وتعالى، ولكي يعرفوا ما كانت عليه عبادته -صلى الله عليه وسلم- سألوا عن عبادته التي كان يلتزمها فلما أخبروا بها لم يجدوا فيها ما يحقق رغباتهم فتأولوا اعتداله -صلى الله عليه وسلم- في العبادة بأنه مغفور له، فليست له ذنوب وخطايا يحتاج إلى مزيد من العبادة تضمن له محوها وهم يعتبرون أنفسهم بخلافه حيث يرون أن لهم من الذنوب ما يجعلهم يقومون بعبادة توازيها أو تزيد عليها حتى يضمنوا محوها، لذلك عزم كل واحد منهم على القيام بنوع من العبادة التي يرجو أن ينال بها ما يريد، فآل أحدهم أن يقوم الليل أبداً، وآل ثانيهم أن يصوم الدهر ولا يفطر، وأما الثالث فآل أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً، لكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين لهم أن العبادة في الإسلام تقوم على الاعتدال والاقتصاد ضماناً

---

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري، 82/9، باب الترغيب في النكاح.

لدوامها وعدم الملل منها ثم انقطاعها؛ لذلك قال لهؤلاء الصحابة –الذين يريدون الاقتداء به– إنه يصوم ويفطر، ويصلى ويرقد، ويتزوج النساء، وهو مع التوسط في العبادة أخشاهم لله وأتقاهم له، فهذه هي سنته –صلى الله عليه–، وهذا هو السلوك الحميد الذي يجعل المرء المسلم يعيش حياة آمنة رضية خالية من التنطع والتشدد بعيدة عن مظاهر الرهبنة والغلو، فالحنيفية السمحة التي جاء بها هديه –صلى الله عليه وسلم– تقوم على المواءمة بين مطالب الروح ومطالب الجسد في الإنسان، فالمسلم يصوم ويفطر ليتقوى على الصوم ثانية، وهو يصلي وينام ليستطيع الصلاة مرة أخرى، كما أنه يتزوج ليكسر شهوته ويعف نفسه ويكثر به النسل البشري، فهذا هو قوام شريعة التوسط والاعتدال، وما عداه غلو وشطط لا تؤمن معهما السلامة.

5- روى جابر بن عبدالله –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله فإن المُنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى[1].

في هذا الحديث وصف النبي –صلى الله عليه وسلم– الدين بما هو عليه من المتانة والقوة ليكون المتعبد على يقين من أن هذا الدين عند الله عظيم، غير أن هذه القوة والعظمة التي يتميز بها الدين لا ينبغي أن تدفع المتعبد إلى أن يتوجه إليه بقوة واندفاع ليحقق ما يريد، إذ إن هذا الطموح قد يدفعه إلى الغلو ومجاوزة الحدود فلا يتمكن من تحقيق آماله وطموحاته، بل إن ذلك قد يوصله إلى درجة الملل ومن ثم الانقطاع، وقد شبه الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– من لا يعتدل في عبادته بالمسافر الذي لا يعتدل في سيره، ولا يرفق بدابته أو مركبته التي يستعين بها على بلوغ مراده من السفر، فإن من شأنه أن يلحق الضرر بتلك الدابة أو المركبة فتتعطل، فينقطع هو نفسه عن تحقيق رغبته، وعن الوصول إلى مقصده، وهذا معنى قوله –صلى الله عليه وسلم–: لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

(1) السنن الكبرى للبيهقي، 105/4، باب القصد في العبادة.

وفي هذا الحديث الشريف من التشبيه البليغ والمحسنات اللفظية ما أدى إلى ظهور المعنى المراد بدرجة لا مزيد عليها، فقد شبه النبي –صلى الله عليه وسلم- ذلك الذي يغالي في عبادته فيجهد نفسه ويرهقها فيئول مصيره إلى الانقطاع عن العبادة، ولا يتمكن من تحقيق غايته في رضى الرحمن عليه، بالمسافر الذي يجهد نفسه ودابته في السير ليل نهار، فيؤول به الأمر إلى هلاك دابته، وعدم بلوغه مقصده، وهذه النتيجة لا يسعى إليها عاقل، ولا يقصدها من يريد النجاح والنجاة في الدنيا والآخرة.

6- روي عن أبي موسى قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا. وروي عن أبي بردة عن أبيه عن جده (أبي موسى الأشعري) أن النبي –صلى الله عليه وسلم- بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا. وروي عن أنس بن مالك –رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا(1).

يؤخذ مما ورد في هذه الأحاديث برواياتها المختلفة من ألفاظ متعددة الدعوة إلى الاعتدال والتوسط بمعانيه الواسعة، واحتمالاته المتعددة، فما تدل عليه ألفاظ (التيسير والتبشير والتسكين) لا يخرج عن معاني الاعتدال في جانبه الإيجابي، فإن التيسير بضوابطه وحدوده الشرعية هو مظهر جلي من مظاهر الاعتدال الذي يدعو إليه الإسلام، فإذا ما خرج التيسير عن هذه الضوابط كان تفريطاً فيما هو مطلوب شرعاً، وبالمقابل فإن انعدام التيسير مطلقاً جنوحٌ إلى التعسير الذي هو الإفراط المنافي للتوسط والاعتدال.

وما قيل في حق التيسير ينطبق تماماً على التبشير والتسكين، فإذا ما بولغ في التبشير والتسكين آل الأمر إلى نوع من التحلل والتقاعس الذي يؤدي إلى

---

(1) صحيح مسلم مع النووي، 40/12، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث.

التفريط، وفي المقابل إذا ما ترك التبشير والتسكين آل الأمر إلى الابتعاد والنفور وهو ينافي الاعتدال والوسطية.

أما ما يدل عليه لفظا (لا تعسروا ولا تنفروا)، فإن النهي فيهما يفضي إلى طلب الاعتدال، إذ التعسير ومثله التنفير جنوح إلى الإفراط في الأمر، وهو مغالاة وتشدد ينافيان الاعتدال، والمسلم مأمور بالابتعاد عما نهي عنه، وهو هنا منهي بالابتعاد عن الإفراط في كل شيء، فإن طلب العسير من كل أمر مدعاة إلى النفور منه، ومن ثم تركه.

ومن المعاني اللطيفة التي استنبطها الإمام النووي من هذه الأحاديث أنها تدل على ضرورة الاعتدال مع الناس في المأمورات، والرفق والرأفة بهم في كل حال، خاصة بمن كان منهم قريب عهد بالإسلام، ومن قارب سن البلوغ من الصبيان، ومن كان حديث عهد بالتوبة، فهؤلاء جميعاً وأمثالهم ينبغي التلطف معهم والتدرج بهم في أنواع الطاعات قليلاً قليلاً، حتى يدخلوها بيسر، ويألفوها، ويداوموا عليها، وسيتزيدوا منها[1].

(1) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، 41/12.

الخاتمة

إنني كما حمدت الله في البداية أحمده في النهاية وأشكره على توفيقه لي حتى تمكنت من تقديم هذه المشاركة، التي آمل منها حصول النفع لكل من يطلع عليها، وها أنا أعرض في ختامها جملة من النتائج على النحو الآتي:

- يتضح جلياً أن القرآن الكريم يدعو إلى الاعتدال والوسطية في التدين، ويمدح المتصفين بذلك، ويعدهم بخيري الدنيا والآخرة.
- ظهر من خلال بعض الآيات القرآنية النهي عن الإفراط والتفريط، لما في كل من الخروج عن صفات عباد الرحمن الذين مدحوا بأنهم لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قواما.
- دلت الأحاديث النبوية التي تم التعرض لها في مجملها على طلب الاعتدال والتوسط في التعبد اهتداء بسنته وسيرته –صلى الله عليه وسلم–، كما دلت على التنفير من المغالاة والتشدد في التدين كي لا يصاب المسلم بالإرهاق والملل فيترك العبادة كلاً وبعضاً.
- دلت بعض الأحاديث النبوية على ضرورة أن يعوّد الإنسان نفسه عند الصغر على القيام بما يستطيع أن يلتزم به من أمور تعبدية عند الكبر.
- أكدت بعض الأحاديث النبوية على ضرورة التمسك بمبدأ التيسير والتبشير، ودعت إلى نبذ التعسير والتنفير باعتبار التيسير والتبشير من مظاهر الاعتدال والتوسط اللذين يساعدان على الاستمرار في القيام بكل ما هو مطلوب شرعاً، ولما في التعسير والتنفير من مغالاة وتنطع يدفعان صاحبهما إلى السأم، ثم الزهد في العبادة وتركها.

مصادر البحث

- **القرآن الكريم**

1- تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة- القاهرة، الطبعة الثانية

2- الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، نشر دار الشام للتراث بيروت-لبنان.

3- سبل السلام لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، منشورات مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة، الطبعة الرابعة.

4- السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، نشر دار الفكر بيروت- لبنان.

5- صحيح مسلم بشرح النووي لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، نشر المطبعة المصرية ومكتبتها- القاهرة.

6- العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي، نشر دار الإرشاد- القاهرة-الطبعة الثانية، 1971م.

7- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر المطبعة الخيرية-القاهرة.

8- مختصر شرح الجامع الصغير لمحمد بن عبدالرؤوف المناوي، نشر دار إحياء الكتب العربية-القاهرة.